ما هو كفر النعمة وما يترتب عليه

كتبه غريب الديار بتاريخ الأحد١٥ شعبان ١٤٤٢



من أكثر أنواع الكفر انتشارا بين الناس كفر النعمة, الذي يتحول مع الوقت إلى كفر باليوم الآخر, مغلف ببعض الأمانى كما سنرى عند تدبر آيات تتحدث عن الموضوع فيما يلي :

- ما هو كفر النعمة
- نماذج من كفر النعمة
- كيف يتحول كفر النعمة إلى كفر باليوم الآخر

ما هو كفر النعمة

سبحانه جل وعلى أسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة، وهي أكثر من أن تحصى، يقول ربنا عز وجل:

﴿ أَلَم تَرَوا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الأَرضِ وَأَسبَغَ عَلَيكُم نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَباطِنَةً ...﴾[لقمان: ٢٠]

وقال سبحانه:

﴿ اللَّهُ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرضَ قَرارًا وَالسَّماءَ بِناءً وَصَوَّرَكُم فَأَحسَنَ صُوَرَكُم وَرَزَقَكُم مِنَ الطَّيِّباتِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُم فَتَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ العالَمينَ ﴾[غافر: ٦٤]

وقال:

﴿ وَإِن تَعُدّوا نِعمَةَ اللَّهِ لا تُحصوها إِنَّ اللَّهَ لَغَفورٌ رَحيمٌ ﴾[النحل: ١٨]

وكل هذه النعم هي فضل من الله ورحمته منه، ليس للإنسان فيها أدنى دخل، فهو لا يستحقها على الله سبحانه.

المؤمن يعلم أنها فضل من الله ورحمة منه، فيشكر الله عليها، وتزيده هذه النعم تقربا من الله عز وجل، وحبا له سبحانه.

أما الكافر فهو يتناسى أنها فضل من الله لا دخل له فيه، مع كونه إذا سئل عن مصدرها أقرَّ بأنها فضل من الله لا دخل له فيه، ومع ذلك لا يشكر الله عليها، كما لو كان ينكر كونها فضل من الله بلسان حاله.

وهذا هو كفر النعمة، أي جحودها، والتعامل معها كما لو كانت حق للعبد على الله لا يستوجب الشكر.

ولنضرب أمثلة على ذلك :

نماذج من كفر النعمة

إن من نعم الله ورحمته بنا نعمة الليل والنهار والتي من دون وجودها تستحيل الحياة في هذه الدنيا.

فالنهار مصدر الطاقة التي يحتاجها الحيوان والنبات على حد السواء للعيش, كما يحتاجها الإنسان أيضا.

والليل أيضا يحتاجه الحيوان والنبات والإنسان ليسكن فيه ويستعد للنشاط في اليوم التالي

وقد بين ربنا عز وجل هذا وبين أن الله الليل والنهار رحمة منه في قوله:

﴿ قُل أَرَأَيتُم إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيكُمُ اللَّيلَ سَرمَدًا إِلى يَومِ القِيامَةِ مَن إِلهٌ غَيرُ اللَّهِ يَأتيكُم بِضِياءٍ أَفَلا تَسمَعونَ۝قُل أَرَأَيتُم إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيكُمُ النَّهارَ سَرمَدًا إِلى يَومِ القِيامَةِ مَن إِلهٌ غَيرُ اللَّهِ يَأتيكُم بِلَيلٍ تَسكُنونَ فيهِ أَفَلا تُبصِرونَ۝وَمِن رَحمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ وَالنَّهارَ لِتَسكُنوا فيهِ وَلِتَبتَغوا مِن فَضلِهِ وَلَعَلَّكُم تَشكُرونَ ﴾[القصص: ٧١-٧٣]

بعد أن عرفنا هذا ننظر إلى حال الناس مع هذه النعمة, فنجد :

المؤمن يستشعر عظمة الله سبحانه وقدرته في آيتي الليل والنهار, فيحاول أن يتقرب إلى الله عز وجل فيهما بامتثال ما أمر واجتناب ما نهى عنه .

أما الكافر بالنعمة فهو لا يرى أصلا أن الليل والنهار نعمة من الله, وإن ادعى ذلك بلسانه, فلسان حاله يفضحه وإليك الدليل

بدل أن يحمد الله عز وجل على يوم جديد تراه يتسخط قائلا

اليوم الحر شديد ...

اليوم الطقس بارد جدا ...

اليوم الطقس عكر مغبر ليس بالطقس الجميل ...

وكذلك يقول في الليل

إذا تأملت هذه الجمل, وجدت أنها نوع من الاعتراض على خلق الله سبحانه, وكأن صاحبها يعتقد أنه يجب على الله أن يخلق اليوم وأن يجعل طقسه ملائم جميل, لهذا الإنسان الجاهل , وهذا هو عين كفر النعمة.

النموذج الثاني من كفر النعمة هو الذي ينسب فيه المرء الفضل في النعمة إلى نفسه أو إلى الأسباب من دون اللّه سبحانه.

مثلا اللّه يرزق عبده برزق منه سبحانه، فبدل أن يشكر العبد ربه على ما أنعم به عليه ، ينسب الفضل لنفسه، ويقول هذا الرزق إنما حصلت عليه بسبب كدي واجتهادي، أو بسبب علمي، أو بسبب الوظيفة، أو ما شابه، وقد أخبر ربنا عز وجل في عدة آيات منها قوله سبحانه:

﴿ قالَ إِنَّما أوتيتُهُ عَلى عِلمٍ عِندي أَوَلَم يَعلَم أَنَّ اللَّهَ قَد أَهلَكَ مِن قَبلِهِ مِنَ القُرونِ مَن هُوَ أَشَدُّ مِنهُ قُوَّةً وَأَكثَرُ جَمعًا وَلا يُسأَلُ عَن ذُنوبِهِمُ المُجرِمونَ ﴾[القصص: ٧٨]

وقوله:

﴿ فَإِذا مَسَّ الإِنسانَ ضُرٌّ دَعانا ثُمَّ إِذا خَوَّلناهُ نِعمَةً مِنّا قالَ إِنَّما أوتيتُهُ عَلى عِلمٍ بَل هِيَ فِتنَةٌ وَلكِنَّ أَكثَرَهُم لا يَعلَمونَ ﴾[الزمر: ٤٩]

وهذا النوع من كفر النعمة، نوع من أنواع الشرك ، لأن صاحبه يشرك بالله الأسباب في النفع ، فيجعل الأسباب هي من رزقته لا اللّه سبحانه، وقد بين ربنا أن صاحبه مشرك في قوله:

﴿ وَإِذا مَسَّ الإِنسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنيبًا إِلَيهِ ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعمَةً مِنهُ نَسِيَ ما كانَ يَدعو إِلَيهِ مِن قَبلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندادًا لِيُضِلَّ عَن سَبيلِهِ قُل تَمَتَّع بِكُفرِكَ قَليلًا إِنَّكَ مِن أَصحابِ النّارِ ﴾[الزمر: ٨]

فالند الذي جعل لله هو من نسب إليه الرزق من دون اللّه عز وجل.

كيف يتحول كفر النعمة إلى كفر باليوم الآخر

عندما ينعم اللّه على الإنسان لدرجة يشعر بها الإنسان أنه استغنى، يبدأ بالطغيان والتمرد، وهذه حقيقة ثابتة في البشر، يقول ربنا عز وجل:

﴿ كَلّا إِنَّ الإِنسانَ لَيَطغى ۝ أَن رَآهُ استَغنى ﴾ [العلق: ٦-٧]

هذا الطغيان يتجلى في الكفر عمليا باليوم الآخر، مع الإقرار به لسانا، ولكن عمليا الإنسان كافر باليوم الآخر لا يقيم له وزنا.

ظهر هذا جليا في قوله سبحانه:

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظالِمٌ لِنَفسِهِ قالَ ما أَظُنُّ أَن تَبيدَ هذِهِ أَبَدًا۝وَما أَظُنُّ السّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِن رُدِدتُ إِلى رَبّي لَأَجِدَنَّ خَيرًا مِنها مُنقَلَبًا ﴾[الكهف: ٣٥-٣٦]

فلو تأملنا هذه الآيات نجد أن الرجل بدأ أولا بالشعور بالاستغناء، فهو يعتقد أن جنته لن تبيد أبدا.

أي غناه سيكون دائما.

هذا الاستغناء دفعه للطغيان، فأنكر عمليا الآخرة، فهو قد رضي بالحياة الدنيا في جنته، ولم يعد يهمه الفوز الآخرة، تماما كما وصف ربنا في قوله:

﴿ إِنَّ الَّذينَ لا يَرجونَ لِقاءَنا وَرَضوا بِالحَياةِ الدُّنيا وَاطمَأَنّوا بِها وَالَّذينَ هُم عَن آياتِنا غافِلونَ۝أُولئِكَ مَأواهُمُ النّارُ بِما كانوا يَكسِبونَ ﴾[يونس: ٧-٨]

فصاحب الجنة قد فتنه حسنها، وما فيها من نعم، فرضي بها، وكفر بالآخرة عمليا.

ونظرا لكون هذا الكفر بالآخرة هو نتيجة للنعم الله، وليس نتيجة لقناعة، فإن صاحبه يبرره لنفسه أنه في الآخرة سيدخل الجنة، ولذلك لا يهتم لها لأن أمرها مضمون .

عند تدبر هذه الآية، وقوله سبحانه:

﴿ وَلَئِن أَذَقناهُ رَحمَةً مِنّا مِن بَعدِ ضَرّاءَ مَسَّتهُ لَيَقولَنَّ هذا لي وَما أَظُنُّ السّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِن رُجِعتُ إِلى رَبّي إِنَّ لي عِندَهُ لَلحُسنى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذينَ كَفَروا بِما عَمِلوا وَلَنُذيقَنَّهُم مِن عَذابٍ غَليظٍ ﴾[فصلت: ٥٠]

يدرك المرء أمرين في غاية الأهمية:

الأول أن الله عز وجل يصف ما يقوله المرء بلسان حاله، بأنه قول للمرء، ولو لم ينطق به لسانه، فقول الإنسان في الآية السابقة هذا لي وما أظن الساعة قائمة، قول بلسان الحال أي بتصرفاته.

فهو إذا أنعم الله عليه بنعمة، لم يشكر الله عليها، وتصرف كما لو كانت له ومن حقه

وفي حياته مقبل الدنيا، غافل عن الآخرة، كما لو كان لا يؤمن بالآخرة.

والدليل على أن ما سبق قول بلسان الحال، لا بلسان المقال، بقية الآية حيث قال:

وَلَئِن رُجِعتُ إِلى رَبّي إِنَّ لي عِندَهُ لَلحُسنى

فهذا قول بلسانه يقرّ فيه بالرجوع إلى ربه، وبالنعيم في الآخرة، في صيغة التمني، مما يؤكد أن كفره بالآخرة السابق إنما قاله بلسان حاله، لا لسان مقاله، فهو بلسانه يقر بالآخرة ويتمنى الحسنى، ولو قال له أحد أنه كافر بالآخرة لأنكر ذلك.

الأمر الثاني هو كون هذه الآية تصف حال أغلب الناس اليوم، إلا من رحم اللّٰه.

فأغلب الناس اليوم يتعاملون مع نعم اللّٰه وكأنها لهم، لذلك تجدهم يسخطون عندما لا توافق أهواءهم .

وأغلب الناس اليوم كافرون بالآخرة عمليا، لا يقيمون لها وزنا، مقبلون على الدنيا بقلوبهم وجوارحهم، ويبررون ذلك لأنفسهم بأنهم يرجون رحمة اللّٰه، وأن يدخلهم في الجنان، فذلك أملهم في اللّٰه، وظنهم به، وهو سبحانه عند ظن عبده به.

والحق أن ذلك القول إنما هو لتبرير الكفر الذي هم فيه واقعون، فلو آمنوا بالله وباليوم الآخر، لما نسبوا النعم لأنفسهم، ولما غرتهم الحياة الدنيا، ولأقبلوا على اللّٰه يتقربون إليه، ويرجون لقاءه سبحانه.